الفصل الثاني
سلطنة الملك المنصور نور الدين على بن الملك المعز أيبك

السلطان الملك المنصور نور الدين علي بن السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركماني الصالحي النجمي، هو الثاني من ملوك مصر من الترك بالديار المصرية، ملك الديار المصرية بعد يومين من مقتل أبيه وذلك في يوم الخميس 26 ربيع الأول 655 هـ / 12 أبريل 1257م وكان عمره خمس عشرة سنة تقريبًا حسب رواية النويري، أو عشر سنين حسب رواية بيبرس الدوادار، وذلك باتفاق من الأمراء المعزية مماليك والده – فحلفوا له واستحلفوا جميع العساكر، وتم أمره وخطب له من الغد في يوم الجمعة سابع عشرينه على منابر مصر وأعمالها[1].

وركب في يوم الخميس ثاني شهر ربيع الآخر/ 19 أبريل بشعار السلطنة من القلعة إلى قبة النصر[2] في موكب هائل ثم عاد ودخل القاهرة من باب النصر، وترجّل الأمراء ومشوا بين يديه ما خلا الأتابك علم الدين سنجر الحلبي، ثم صعد المنصور إلى القلعة وجلس بدار السلطنة ومد السماط للأمراء فأكلوا، ووزر له وزير أبيه شرف الدين الفائزي وانفض الموكب[3].

وفي يوم الجمعة ثالث ربيع الآخر المذكور خطب للملك المنصور وبعده لأتابكه علم الدين سنجر الحلبي، وفوض القضاء بالقاهرة وأعمالها إلى القاضي بدر الدين السنجاري، وعزل تاج الدين ابن بنت الأعز وأبقى عليه قضاء مصر القديمة وأعمالها[4].

وفي يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر قبض الأمير قطز وسنجر الغتمي وبهادر وغيرهم من الأمراء المعزية على الأتابك سنجر الحلبي وأنزلوه إلى الجب بالقلعة، وكان القبض عليه لتخوفهم من تطلعه للسلطنة وخصوصًا وأن شجر الدر سبقت وأن عرضتها عليه بعد قتل أيبك، ولما قبض عليه اضطربت خشداشيته (زملائه) من المماليك الصالحية النجمية وخافوا، فهرب أكثرهم إلى الشام، فخرج في إثرهم جماعة من الأمراء المعزية وغيرهم، وتقنطر الأمير عز الدين أيبك الحلبي الكبير عن فرسه وكذلك الأمير خاص ترك الصغير فهلكا خارج القاهرة وأدخلا ميتين، وكانا قد ركبا في جماعة من المماليك الصالحية في قصد الشام أيضًا، واتبع العسكر المهزومين إلى الشام فقبض على أكثرهم وحملوا إلى القلعة واعتقلوا بها[5].

---

(1) النويري، نهاية الأرب، جـ 29، ص 459-460؛ المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 405؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 41؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 25.

(2) قبة النصر كان زاوية يسكنها فقراء العجم كانت تقع شمال شرق خانقاه السلطان فرج ابن برقوق، وقد اندثرت.

(3) النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 41.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 41-42.

(5) ابن أيبك، كنز الدرر، جـ 8، ص 32؛ المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 405؛ النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 42.

واستقر في الأتابكية الأمير سيف الدين قطز المعزي مملوك المعز أيبك بدلًا من الأمير سيف الدين أقطاي الصالحي المستعرب الصالحي[1].

وقبض على الوزير شرف الدين الفائزي وصودرت أموال وممتلكات الفائزي وكان مثريًا وله ودائع كثيرة فتتبعت ممن كانت تحت يده، واعتقل، فسأل أن يعطي مالًا فداءً عن نفسه[2]، وكان الساعي في القبض عليه أم الملك المنصور، فطبقًا لما ذكره المقريزي أنه قال للأميرين سابق الدين بوزنا الصيرفي وناصر الدين محمد بن الأطروش الكردي أمير جاندار: "المملكة ما تمشي بالصبيان والرأي أن يكون الملك الناصر" فتوهمت أم المنصور من أنه يرسل إلى الملك الناصر فقبضت عليه وأدخلته إلى الدور وأخذ خطه بمائة ألف دينار[3]. وطبقًا لما ذكره النويري هو حقد أم الملك المنصور عليه لتشجيعه للمعز أيبك على هجرها، وقال النويري في ذلك: "حكى عن القاضي برهان الدين أخو الصاحب بهاء الدين بن حنا[4] أنه قال: دخلت عليه في محبسه فسألني أن أتحدث في إطلاقه – على أن يحمل في كل يوم ألف دينار. قالك كيف تقدر على هذا؟ فقال: أقدر عليه إلى تمام سنة، وإلى انقضاء سنة يفرج الله، ولما بذل هذا المال امتنعت والدة الملك المنصور من ذلك[5] ولم ترض إلا بقتله، لأنها كانت مخوفة من السلطان الملك المعز وكان قد اتخذ سرارى وجعلهن عند الوزير شرف الدين، فنقمت ذلك عليه وأمرت بقتله فقتل صبرًا[6].

ثم قبض على بهاء الدين علي بن حنا وزير شجر الدر وأخذ خطه بستين ألف دينار[7].

ولما صرف الصاحب شرف الدين الفائزي فوضت الوزارة بعده للفقيه نور الدين علي بن رضوان القرافي فؤدب الملك المنصور هذا وخلع عليه خلع الوزراء، فامتنع أن يخط بقلمه

---

(1) النويري، نهاية الأرب، جـ 29، ص 460؛ كنز الدرر، جـ 8، ص 32.

(2) النويري، نهاية الأرب، جـ 29، ص 460؛ المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 405؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 42-43.

(3) السلوك، جـ 1، ص 405.

(4) (الصاحب بهاء الدين السنجاري) في نهاية الأرب، ولكن الصحيح ما ذكره أعلاه طبقًا لما نقله المقريزي عن ابن واصل.

(5) ذكر المقريزي في روايته أن الذي رفض هذا هم مماليك الملك المعز وحمل إلى القرافة فدفن بها. السلوك، جـ 1، ص 406.

(6) نهاية الأرب، جـ 29، ص 460.

(7) ابن أيبك، كنز الدرر، جـ 8، ص 33؛ النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 43.

أو يكتب على توقيع أو منشور، واستمر كذلك عشرين يومًا واستعفى، فأرسل إليه القاضي بدر الدين السنجاري يلتمس منه أن يتحدث له في الوزارة ويعده أنه لا يخرج عن أمره، فقال للسلطان ولوالدته –وكانت لا تحتجب عنه فيما قيل– للأتابك: أنا لا أصلح لهذا المنصب ولا أنتفع به، وأشار بالقاضي بدر الدين، فعند ذلك فوض للفقيه نور الدين هذا نظر الأحباس والأوقاف، وفضت الوزارة لقاضي القضاة بدر الدين السنجاري، فوليها ثلاثة أشهر وأيامًا ثم عزل بابن بنت الأعز[1].

وفي ليلة الخامس عشر من جمادي الآخرة / 30 يونية 1257م خسف القمر بحمرة شديدة وأصبحت الشمس حمراء، فأقامت كذلك أيامًا وهي ضعيفة اللون متغيرة[2].

ولما بلغ البحرية الذين كانوا ببلاد السلاجقة موت الملك المعز، ساروا في البر والبحر ووصلوا إلى القلعة، فلم تطل مدتهم حتى كرهوا المنصور بن المعز لكثرة لعبه بالحمام ومناقرته بالديوك ومعالجته بالحجارة وركوبه الحمير الفره في القلعة ومناطحته بالكباش[3].

وفي جمادي الأولى قام الصارم أحمر عينه الصالحي بجماعة على الوزير شرف الدين الفائزي في محبسه وقتلوه حسبما ذكر المقريزي[4]، بينما ذكر النويري أنه قتل صبرا[5].

وفي شعبان كثرت الأراجف بين الناس بأن الأمراء والأجناد اتفقوا على إزالة حكم مماليك الملك المعز من الدولة، وأن الملك المنصور تغيّر على الأمير سيف الدين قطز المعزي، واجتمع الأمراء في بيت الأمير بهاء الدين بغدي مقدم الحلقة[6]، وتكلموا إلى أن صلح الأمر بين الملك المنصور وبين مملوك أبيه قطز وخلع عليه وطيب قلبه، ثم وقع الكلام أيضًا من المعزية وغيرهم، فلما كان رابع شهر رمضان من هذه السنة (655هـ) / 15 سبتمبر 1257م ركب الأمير بغدي وبدر الدين بلغان وانضاف إليهما جماعة ووقفوا بآلة الحرب، فخرج إليهم

---

(1) النويري، نهاية الأرب، جـ 29، ص 461.
(2) المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 405.
(3) السلوك، جـ 1، ص 406.
(4) السلوك، جـ 1، ص 406.
(5) نهاية الأرب، جـ 29، ص 460.
(6) أجناد الحلقة هم الجنود المحترفون وعددهم كبير، وكان لكل أربعين نفسًا منهم مقدم منهم ليس له عليهم حكمًا إلا إذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه، وترتيبهم في موقفهم إليه، وهناك طائفتان من الأجناد غير أجناد الحلقة هم المماليك السلطانية والبحرية الذين رتبهم الملك الصالح نجم الدين أيوب. القلقشندي، صبح الأعشى، جـ 4، ص 16.

حاشية السلطان فقتلوهم وهزموهم وقبضوا على بغدي بعد أن جرح وعلى بلغان وحملا إلى القلعة، ودخلت المعزية إلى القاهرة فقبضوا على الأمير عز الدين أيبك الأسمر وأرزن الرومي وسابق الدين بوزا الصيرفي وغيرهم من المماليك الأشرفية ونهبت دورهم، فاضطربت القاهرة حتى نودي بالأمان لمن دخل في الطاعة وسكن الناس(1)، وركب السلطان الملك المنصور في خامس شهر رمضان وشق القاهرة وفي خدمته الأمير قطز وباقي مماليك أبيه، ثم نزل أيضًا في عيد الفطر وصلى بالمصلى وركب وعاد إلى القلعة ومد السماط(2).

وفي العاشر من رمضان / 21 سبتمبر 1257م فوضت الوزارة لقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز(3) بدلًا من قاضي القضاة بدر الدين السنجاري(4).

وفي هذه السنة وقعت الوحشة بين الملك الناصر صاحب الشام وبين من عنده من البحرية، وخصوصًا وأنه لم يسمع لتحريضهم له على قصد الديار المصرية، بل اصطلح مع الملك المعز أيبك، وكان أيبك قد كتب إليه وخيله منهم ففقد الثقة بهم. ثم فارقوه وتوجوا إلى نابلس وقصدوا الملك المغيث صاحب الكرك، فوصلوا إلى خدمته في عاشر شوال 655هـ / 21 أكتوبر 1257م(5).

فقبلهم وأكرمهم فالتمسوا منه المساعدة على قصد الديار المصرية وأوهموه أن الأمراء بالديار المصرية كاتبوهم وراسلوهم في ذلك، فجمع الملك المغيث من قدر عليه وسار بهم وبسائر البحرية ومن أعيانهم قلاوون وبيبرس، فأخرج الملك المنصور ابن المعز أيبك إليهم الأمير سيف الدين قطز المعزي بالعساكر المصرية، والتقوا واقتتلوا في الصالحية بالشرقية في يوم السبت 15 ذي القعدة(6) 655هـ / 24 نوفمبر 1257م، فانكسر الملك المغيث ومن معه من البحرية، واستولى العسكر المصري على أثقالهم، وقتل الأمير عز الدين الرومي الصالحي وسيف الدين الكافوري وبدر الدين إيغان الأشرفي، وأسر سيف الدين قلاوون الألفي والأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، وانسحب المغيث ومن بقي معه إلى الكرك(7).

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 43.
(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 43-44.
(3) انظر نسخة تقليده الوزارة الذي نقله لنا المؤرخ النويري في الملحق الثاني.
(4) النويري، نهاية الأرب، جـ 29، ص 461.
(5) نهاية الأرب، جـ 29، ص 434؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص 25.
(6) (25 ذي القعدة) في نهاية الأرب وهو خطأ في النقل وصحتها 15 ذي القعدة.
(7) نهاية الأرب، جـ 29، ص 434-435؛ المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 406؛ أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، جـ 3، ص 232؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 44-45؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص 25.

ولما أسر الأمير سيف الدين قلاوون وضمنه الأمير سيف الدين قيران المعزي أستاذ الدار[1] السلطانية، فما تعرض له أحد، وأقام بالقاهرة برهة يسيرة، ثم تسحب واختفى بالحسينية عند الأمير سيف الدين قطليجا الرومي وقصد اللحاق بخوشداشيته (زملائه)، فزوده وجهزه فتوجه إلى الكرك[2].

ثم فارق البحرية الملك المغيث وتوجهوا نحو الغور (غور الأردن) فصادفهم الأمراء الشهرزورية[3] عندما جفلوا من بلاد الشرق، فاجتمع البحرية بهم، وتزوج الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري منهم، فبلغ الملك الناصر صاحب الشام ذلك، فجهز جيشًا لقتالهم فالتقوا بالغور واقتتلوا، فانهزم الناصري، فغضب الملك الناصر لذلك، وخرج بنفسه إليهم، فعلموا عجزهم عن مقابلته فتوجهوا إلى الملك المغيث بالكرك، وتوجه الشهرزورية إلى الديار المصرية[4].

ثم فارق الأمير ركن الدين بيبرس البندقدراي ومعه مجموعة من زملائه من المماليك البحرية الملك المغيث صاحب الكرك والتجأوا للملك الناصر صاحب الشام وحلب في العشر الأول من شهر رجب من العام التالي (656هـ) وظلوا في خدمته إلى سنة 658هـ / 1260م ففارقوه لما ملك التتار حلب وعلموا عجزه عن ملاقاتهم ففارقوه وتوجهوا إلى غزة وتوجهوا إلى خدمة الملك المظفر سيف الدين قطز وشهدوا معه حرب التتار وموقعة عين جالوت حسبما يأتي[5].

حوادث وأخبار سنة 656هـ / 1258م

شهدت بدايات هذه السنة أعظم مصيبة حلت بالعالم الأسلامي وهي سقوط الخلافة العباسية على أيدي المغول والتتار.

---

[1] استاذ الدار أو الاستادار هو الذي يتولى الاستادارية وهي الوظيفة العاشرة في ترتيب الوظائف التي يشغلها عسكريون في حضرة السلطان المملوكي، وموضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان، وهو الذي يمشي بطلب السلطان ويحكم في غلمانه وباب داره، وإليه أمر الجاشنكيرية وإن كان كبيرهم نظيره في الإمرة من ذوي المئين، وله حديث مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من بيت السلطان من النفقات والكساوي وما يجري مجرى ذلك للمماليك ونحوهم، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة: واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه وربما نقصوا عن ذلك.

القلقشندي، صبح الأعشى، جـ 4، ص 20؛ حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف، جـ 1، ص 39-48.

[2] النويري، نهاية الأرب، جـ 29، ص 435؛ المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 406.

[3] الشهرزورية هم الأمراء الأكراد الذين قدموا من بلاد شهرزور خوفًا من التتر.

[4] نهاية الأرب، جـ 29، ص 435-436.

[5] النويري، نهاية الأرب، جـ 29، ص 436-438.

وكان منكو خان – خاقان المغول الأعظم – أوفد أخاه هولاكو لفتح فارس والشام ومصر وبلاد الروم (السلاجقة) والأرمن، وبالفعل استطاع بجيوشه من المغول والتتر القضاء على الدولة الخوارزمية وسيطروا على إيران، كما استولوا بعد قليل على قلاع الباطنية في فارس، وبذلك جاء دور الخلافة العباسية في بغداد، وكانت الخلافة العباسية في عهد الخليفة المستعصم بالله تعالى آلام الموت بعد أن اعتراها الضعف الشديد بسبب الانقسامات المذهبية والفتن الداخلية وسيطرة الوزراء والأمراء على الخلافة وشئونها، ولذلك لم تستطع الخلافة العباسية الصمود في وجه العزو المغولي للعراق في أول هذه السنة[1]، في الوقت الذي فشلت فيه جهود الخليفة المستعصم العباسي في توحيد جهود الأيوبيين والمماليك في الشام ومصر لصد ذلك الخطر. وكان هولاكو قد أمر بالهجوم العام على بغداد في يوم الثلاثاء أول يوم من تلك السنة/ 8 يناير 1258م وتغلب على جيوش الخلافة واستولى على بغداد في العشرين المحرم / 27 يناير 1258م[2] وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله، بل قضى على كل شخص وجده حيًا من العباسيين، وقام المغول بمذبحة عظيمة رهيبة في بغداد لثمانمائة ألف من أهلها، ثم أشعلوا النار فيها فأتت على كثير من تراث العباسيين – بل تراث الحضارة الإسلامية – في الآداب والعلوم والفنون[3].

وقد أحدث اسقاط المغول للخلافة العباسية في بغداد هزة عنيفة في العالم الإسلامي، وأخذ حكام المسلمين وأمراؤهم في البلاد المجاورة يعملون حسابًا لليوم المرتقب حيث سوف يأتي الدور عليهم، وكانت أخبار قسوة المغول والتتار ووحشيتهم وعنفهم تسبقهم دائمًا إلى البلاد التي لم يصلوا إليها بعد، فيسرع الأمراء والحكام إلى استرضائهم والاستسلام لهم طلبًا للسلامة وتجنبًا لسوء العواقب، وهكذا أسرع أهالي الحلة والكوفة وواسط في العراق إلى استقبال جند هولاكو ورسله "وأقاموا الأفراح ابتهاجًا بقدومهم"، وفعل مثل ذلك حاكم الموصل وسلطان السلاجقة الروم وغيرهما من حكام البلدان الإسلامية المجاورة[4].

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص 27.

(2) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، جـ 3، ص 232.

(3) العصر المماليكي، ص 27.

(4) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص 28.

أما ملوك الأيوبيين وأمراؤهم بالشام فلم يكونوا أحسن حالًا، إذ أسرع الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق إلى إعلان خضوعه للتتار، فأرسل ابنه العزيز محمد بتحف وتقادم إلى هولاكو ملك التتر وصانعه لعلمه بعجزه عن ملتقى التتر مقتديًا في ذلك بصاحب الموصل(1)، ومع هذا لم يشفع للناصر إرسال ولده لهولاكو الذي رأى بأن عدم حضوره هو إليه واكتفائه بإرسال ابنه يعتبر إهانة شخصية بالنسبة له، ويذكر المقريزي أن العزيز عاد إلى أبيه ومعه رسالة من هولاكو يصف له فيها ما حل ببغداد على أيدي التتار وينذره بسوء العاقبة إن لم يستسلم للتتار فورًا دون قيد أو شرط(2)، وفي تلك الأزمة لم يجد الناصر يوسف الأيوبي أمامه سوى المماليك في مصر، فأرسل إليهم الصاحب كمال الدين ابن العديم ليطلب معونتهم لمواجهة خطر التتار فوعده المماليك بالمساعدة(3).

وهناك رأي أخر يناقض طلب الناصر المساعدة من مصر حيث ذكر المقريزي أن ابنه الملك المعز لما ذهب إلى هولاكو سأله على لسان أبيه في نجدة ليأخذ مصر من المماليك، فأمر هولاكو أن يتوجه إليه بعسكر فيه قدر العشرين ألف فارس، فطار هذا الخبر إلى دمشق، فرحل من كان بها من المماليك البحرية وصاروا إلى الملك المغيث عمر بالكرك وحرضوه على أخذ مصر، فجمع الملك المغيث الجموع وسار(4).

فتجهز الأمير قطز وخرج من القلعة بالعساكر، فلما وصل إلى الصالحية تسلل إلى الملك المغيث من كان قد كاتبه من أمراء مصر وهم عز الدين الرومي والكافوري والهواش وغيرهم، وانحازوا إليه، والتقى الجيشان فكانت الكسرة على المغيث وأصحابه، فانهزم طريدًا إلى نحو الكرك وليس معه إلا القليل من جماعته(5).

واستولى المصريون على من بقي من عساكر المغيث وأثقاله وأسروا جماعة وعادوا إلى قلعة الجبل، وقد تغير قطز على عدة من الأمراء لميلهم إلى الملك المغيث، فقبض على الأمير عز الدين أيبك الرومي الصالحي والأمير سيف الدين بلبان الكافوري الصالحي الأشرفي والأمير

---

(1) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، جـ 3، ص 236؛ العيني، عقد الجمان، جـ 1، ص 179.

(2) السلوك، جـ 1، ص 415-416.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 72، 73.

(4) المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 410-411.

(5) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 33؛ السلوك، جـ 1، ص 411؛ العيني، عقد الجمان، جـ 1، ص 181.

بدر الدين بكتوت الأشرفي والأمير بدر الدين بلغان الأشرفي وجماعة غيرهم، وضرب أعناقهم في 26 ربيع الأول 656هـ / 3 أبريل 1258م وأخذ أموالهم كلها[1].

وأما البحرية فإنهم لما انهزموا توجهوا نحو الغور، فصادفهم الشهرزورية الأكراد وقد جاءوا جافلين من الشرق، فاجتمعوا بهم واتفقوا معهم، وتزوج الملك الظاهر منهم[2].

وبلغ ذلك الملك الناصر صاحب دمشق، فخاف أن تقوى شوكتهم فيقصدون الشام ويفسدون عليه النظام، فجرد عسكر لقتالهم، فالتقوا بالأغوار، فكسروا عسكره وقتلوهم وعادوا إليه وقد نالت منهم الكسرة، فاستشاط لذلك غضبًا، وركب بنفسه، وجمع عساكره لقصدهم والإيقاع بهم، فعلموا العجز عن المقاتلة فتفرقوا، فتوجه البحرية إلى الكرك ليأووا عند الملك المغيث، وتوجهت الشهرزورية نحو الديار المصرية، فصادفوا التركمان نازلين بالعريش، فقاتلوهم على الماء حتى جرت بينهم بالغدر غدران الدماء، وبلغ ذلك الملك الناصر وأن البحرية عادوا إلى الملك المغيث، فأرسل إليه يطلب منه تسليمهم ويتهدده إن مانع عنهم، فدافعه المغيث في أمرهم[3].

فسار الملك الناصر بعساكره عازمًا على منازلة الكرك ونزل على بركة زيزا، وراسل الملك المغيث بنوع من التهديد، وأغلظ له في الوعيد، فعلم أنه لا يدفعه عنه إلا إرسالهم إليه، فتحيل عليهم فأمسك من أمكنه وفاته من لم يقدر عليه، فأرسل الذين أمسكهم إلى الملك الناصر وهم: شمس الدين الأشقر وسيف الدين سكز وسيف الدين برامق وغيرهم، فأرسلهم الملك الناصر إلى قلعة حلب فحبسوا بها إلى أن فتحها هلاون (هولاكو) وأخذهم صحبته إلى بلاده.. وأما الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري والأمير سيف الدين قلاوون الألفي وخشداشيتها (زملائهما) الذين لم يجد الملك المغيث سبيلًا إلى القبض عليهم لأن الخبر قد نما إليهم فتشردوا في تلك النواحي مدة، ثم حضروا إلى الديار المصرية ولزموا الخدمة على العادة المرضية[4].

ومن المواقف التاريخية التي تعرض لها بيبرس وقلاوون أثناء تشردهما بعد تركهما الملك المغيث صاحب الكرك، ما رواه مؤرخنا بيبرس المنصوري الدوادار مملوك قلاوون فقال:

---

(1) السلوك، جـ1، ص 411.

(2) زبدة الفكرة، حـ 1، ص 411؛ عقد الجمان، جـ1، ص 181.

(3) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 34؛ العيني، عقد الجمان، جـ1، ص 181-182.

(4) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 34؛ العيني، عقد الجمان، جـ1، ص 182.

"قال الراوي – يقصد نفسه – وها أنا أذكر خبرًا أخبر به السلطان الشهيد المخدوم الملك المنصور سيف الدين قلاوون حين كانا في هذا الوقت على صورة من القلة والتشتيت والتنقل من مكان إلى مكان والوجل وعدم الاستقرار، وكونهما لا يمكنهما الإقامة بدار، فإن الملك الناصر مجدٌّ في طلبهما، والمغيث عامل على قبضهما، والمظفر (قطز) بمصر لا يركن إليهما. قال: عزمنا عنه في هذه المشقة على زيارة الشيخ على البكاء وهو يومئذ مقيم بزاويته بالخليل على ساكنه السلام – فأعوزني القوت يومًا من الأيام، فصادفت إنسانًا مجتازًا بشيء من الطعام، فطلبت منه ما آكله لضرورة الجوع فامتنع من العطاء، فحملني الغيظ على أن ضربته ضربة فرطت عن خطاء، فكانت فيها منيته وبها موتته، فندمت أشد الندم وقلت: لقد كان الجوع والعدم خيرًا من سفك الدم، ثم إنا مضينا إلى الشيخ فلما دخلنا عليه سلم على الأمير ركن الدين وصافحه، ودنوت منه لأسلم عليه فنفر منى وزوى وجهه عني وقال: هذا يتجرأ على قتل النفس التي حرّم الله، فأعجبت بكشفه واطلاعه، وانقباضه من مصافحتي وامتناعه، فتلطف الأمير ركن الدين في سؤاله والتماس إقباله، فسمح بجلوسي وابتدأ بتأنيسي، ولما قمنا لنودعه صافح الأمير ركن الدين بيبرس ودعا له وقال: أنت رائح إلى ديار مصر وسيصير إليك مُلْكها فاجتهد في فعل الخير، ثم تقدمت إليه بعده فصافحني وقال لي كما قال له، فتعجبنا من قوله لنا هذا المقال ونحن على ذلك الحال، فدارت الأهله دورها وتقبلت كورها وحورها، وتملك الأمير ركن الدين بيبرس ولقب الملك الظاهر وأقام ما أقام، وصار المُلْكُ إلى المخدوم – يقصد قلاوون– تغمده الله برحمته ثم إلى أهل بيته وذريته بقوة الله ومشيئته، وكان ذلك من كرامات الأولياء ومكاشفات الأصفياء[1].

وفي هذه السنة فر طائفة من الأكراد الشهرزورية من وجه عسكر هولاكو وقدموا دمشق وعددهم نحو الثلاثة ألاف ومعهم أولادهم ونسائهم فسر بهم الملك الناصر واستخدمهم ليتقوى بهم، فزاد عنتهم وكثر طلبهم حتى خافهم وأخذ يداريهم وما يزيدهم ذلك إلا تمردًا عليه إلى أن تركوه وساروا إلى الملك المغيث بالكرك فسربهم، وناقت نفسه إلى أخذ دمشق، فخاف الناصر وتخيل من الأمراء القيمرية الذين في دمشق فاضطرب وتحير[2].

---

[1] بيبرس المنصوري الدوادار، زبدة الفكرة، ص 34-35.

[2] المقريزي، السلوك، جـ1، ص 411-412.

وفي هذه السنة وقع الغلاء بسائر البلاد وارتفعت الأسعار بدمشق وحلب وأرض مصر، وأبيع المكوك[1] القمح بحلب بمائة درهم والشعير بستين درهمًا والبطيخة الخضراء بثلاثين درهمًا، وبقية الأسعار من هذه النسبة[2].

وذكر المقريزي أن في رابع شهر رمضان من هذه السنة (656هـ) / 4 سبتمبر 1258م سقطت إحدى مسال فرعون التي بعين شمس فوجد فيها نحو المائتي قنطار نحاس، وأخذ من رأسها عشرة آلاف دينار[3].

وفيها كثر الوباء ببلاد الشام، فكان يموت من حلب كل يوم ألف ومائتا إنسان، ومات من أهل دمشق خلق كثير[4]، وبلغ الرطل التمرهندي ستين درهمًا[5]، ويبدو أنه كان يستعمل للاستشفاء به.

حوادث وأخبار سنة 657هـ / 1259م

في هذه السنة غادر المماليك البحرية دمشق متخوفين من صاحبها الملك الناصر وعادوا إلى خدمة الملك المغيث بالكرك، فكتب الناصر إليه يطلب منه تسليمهم ويهدده إن لم يفعل، فدافع عنهم، فسار الملك الناصر بنفسه ونزل ببركة زيزا بالبلقاء وعزم منازلة الكرك إن أصر الملك المغيث على الامتناع من تسليمهم إليه[6].

وكان الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري قد تخيل وتخوف من الملك المغيث لحكاية جرت بينهما[7]، فأرسل إلى السلطان الملك الناصر الأمير بهاء الدين أمير أخور[8] يطلب منه

---

(1) المكوك مكيال للحبوب يسع صاعًا ونصفًا، والصاع قدر نصف وية، والويبة ثلاث كيلات.

(2) السلوك، جـ 1، ص 409.

(3) السلوك، جـ 1، ص 409.

(4) السلوك، جـ 1، ص 410؛ العيني، عقد الجمان، جـ1، ص183.

(5) السلوك، جـ 1، ص 410.

(6) النويري، نهاية الأرب، جـ 29، ص 436.

(7) روى النويري هذه الحكاية فيما يلي: "واتفق للأمير ركن الدين بيبرس البندقداري مع الملك المغيث حكاية عجيبة، وهو أنه كان في يده نتوء في اللحم شبه خرزة، فجلس في بعض الأيام بين يدي الملك المغيث وقد أتي بلوز أخضر وعسل، فجعل يفرك اللوز على العسل، فنظر الملك المغيث إلى النتوء الذي في يده، فقال: ما هذا يا ركن الدين؟ قال: هذه خرزة الملك!، فتغير وجه الملك المغيث وعلم جرأته وقصد قتله ثم تركه، أخبرني بذلك المولى شرف الدين أبو الروح عيسى ابن الملك المغيث، عمن حضر هذه الواقعة وسمع ذلك من لفظهما". نهاية الأرب، جـ 29، ص 436.

(8) الأمير أخور هو الذي يتولى وظيفة أمرة أخورية وهي الوظيفة السادسة في الترتيب من الوظائف التي يشغلها في بلاط السلطان المملوكي، وأمير أخور اسم مركب من لفظين أمير بالعربية ولفظة آخور بالفارسية ومعناها المعلف، وموضوعها التحدث على اصطبل السلطان وخيوله، وعادتها أن يكون أمير مائة مقدم ألف ودونه ثلاثة من أمراء الطبلخاناه، أما أمراء العشرات والجند فغير محصور، وكان الأمير أخور يقيم في قاعة ملحقة بالاسطبل السلطاني. القلقشندي، صبح الأعشى جـ 4، ص 18-19؛ حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف، جـ 1، ص 174-181.

الإذن في حضوره إلى خدمته ومفارقة الملك المغيث، وأن يستحلفه له ولجماعة معه أن لا يغدر بهم، وأن يكون السفير في ذلك الأمير عماد الدين ابن المجير، فأجاب الملك الناصر إلى ذلك، فبعث إليه الأمير الشيخ يحيى برسالة مضمونها: أن يحلف له ولعشرين من أصحابه وأن يقطعه خبز (إقطاع) مائة فارس، وشرط أن تكون قصبة نابلس وجينين وزرعين مما يقطعه له، فأجاب إلى نابلس لا غير وحلف له[1].

فقدم الأمير ركن الدين إلى الملك الناصر في العشر الأول من شهر رجب وصحبته الجماعة الذين حلف لهم وهم: الأمير بدر الدين بيسري الشمسى، والأمير سيف الدين أبتمش المسعودي، والأمير علاء الدين طيبرس الوزيري، وجمال الدين أقش الرومي، وسيف الدين بلبان الدوادار، وعلاء الدين كشتغدي الشمسى، وحسام الدين لاجين الدوادار المعروف الدرفيل، وعلاء الدين كشتغدي المشرفي، وسيف الدين بلبان المهراني، وعلم الدين سنجر الأسعدي، وعلم الدين سنجر الهمامي، وشمس الدين أياز الناصري، وشمس الدين طمان، وعز الدين أيبك العلائي، وحسام الدين لاجين الشقيري، وسيف الدين بلبان الأقسيس، وعلم الدين سلطان الألدكزي – وأكرمهم الملك الناصر ووفى لهم وخلع عليهم وأحسن إليهم وأقطعهم[2].

ثم أمسك الملك المغيث من بقي عنده من البحرية، وسيرهم إلى الملك الناصر وهم: الأمير سيف الدين سنقر الأشقر والأمير سيف الدين سكز برامق، فأرسلهم الملك الناصر إلى قلعة حلب واعتقلهم بها حتى استولى هولاكو على حلب فأخرجهم عنهم وأضافهم إلى عسكره[3].

وبقي الأمير ركن الدين بيبرس والأمير سيف الدين قلاوون وغيرهما ممن لم يمسك من زملائهما في خدمة الملك الناصر إلى أثناء سنة 658هـ / 1260م ففارقوه لما ملك التتار حلب، وعلموا عجزه عن ملاقاتهم، فارقوه وتوجهوا إلى غزة، ثم راسلوا الملك المظفر قطز وكان قد تسلطن فرحب بعودتهم وشهدوا معه حرب التتار[4].

---

[1] النويري، نهاية الأرب، جـ 29، ص 437؛ ابن أيبك، كنز الدرر، جـ 8، ص 38؛ المقريزي، السلوك، جـ1، ص 415.

[2] نهاية الأرب، جـ 29، ص 437-438؛ السلوك، جـ 1، ص 415.

[3] نهاية الأرب، جـ 29، ص 438؛ السلوك، جـ 1، ص 415.

[4] النويري، نهاية الأرب، جـ 29، ص 438.

وفي هذه السنة أدرك الملك الناصر صاحب الشام أن التتر لم ولن يكفوا عن أطماعهم في بلاد الشام مهما قدم لهم من تنازلات، فسير حريمه إلى الكرك، وخاف الناس بدمشق خوفًا كثيرًا وسار كثير منهم إلى جهة مصر، وكان الوقت شتاءًا فمات خلائق بالطريق ونهب أكثرهم، وبعث الناصر عندما بلغه توجه هولاكو نحو الشام بالصاحب كمال الدين عمر ابن العديم إلى مصر يستنجد بعسكرها[1].

فلما قدم ابن العديم إلى القاهرة عقد مجلس بالقلعة عند الملك المنصور، وحضر قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وسئلا في أخذ أموال العامة ونفقتها في العساكر، فاتخذ العز بن عبد السلام موقفًا بطوليًا في وجه المماليك فقال: "إذا لم يبق في بيت المال شيء وأنفقتم الحوائص[2] الذهب ونحوها من الزينة وتساويتم والعامة في الملابس سوى آلات الحرب ولم يبق للجندي إلا فرسه التي يركبها، ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء، إلا إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم"، وانفضوا، وكان المؤرخ ابن واصل الذي نقل عنه المقريزي هذه الرواية حاضرًا هذا المجلس[3].

فوجد الأمير سيف الدين قطز سبيلًا إلى القول، وكان قد استفحل أمره بمصر وصار هو المشار إليه فيها لصغر السلطان الملك المنصور علي، وعلم أنه لا بد من خروجه من الديار المصرية بالعساكر للدفاع عن المسلمين، فرأى أنه لا يقع له ذلك، فإن الآراء مغلولة لصغر السلطان ولاختلاف الحكمة، فجمع قطز كمال الدين بن العديم الحنفي وغيره من الأعيان والأمراء بالديار المصرية، وعرفهم أن الملك المنصور هذا صبى لا يحسن التدبير في مثل هذا الوقت الصعب، ولا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه كل أحد، وينتصب للجهاد في التتار، فأجابه الجميع: ليس لها غيرك[4]، وكانت قد كثرت مفاسد الملك المنصور، واستهتر في اللعب حيث كان يقضي وقته في ركوب الحمير والتنزه في القلعة.. ويلعب بالحمام مع الخدام[5] وتحكمت أمه، فاضطربت الأمور.

---

(1) المقريزي، السلوك، جـ1، ص 416؛ العيني، عقد الجمان، جـ1، ص 217-218.

(2) الحوائص هي الأحزمة التي تربط على الوسط.

(3) السلوك، جـ1، ص 416-417؛ عقد الجمان، جـ1، ص 218-219.

(4) السلوك، جـ1، ص 417؛ عقد الجمان، جـ1، ص 220؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص 55.

(5) ابن أيبك، كنز الدرر، جـ8، ص 33.

فانتهز قطز خروج الأميرين القويين علم الدين سنجر الغتمي وسيف الدين بهادر وغيرهما إلى الصيد، لذلك في يوم السبت 27 ذي القعدة 657هـ / 15 أكتوبر 1259م قبض على الملك المنصور وعوقه ووالدته بالدور السلطانية معلنًا انتهاء حكمه[1]، فكانت مدة سلطنة الملك المنصور على سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام.

ثم نقل قطز المنصور علي وأخيه قاقان وأمهما إلى برج السلسلة بدمياط بعد ذلك، ثم سفروا إلى القسطنطينية في سنة 658هـ / 1260م في الأيام الظاهرية الركنية[2].

---

[1] السلوك، جـ 1، ص 417؛ النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 55، نهاية الأرب، جـ 29، ص 468-469.

[2] النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 55؛ ابن أيبك، كنز الدرر، جـ 8، ص 39؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 46.